مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2020
ص: 551 - 572 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الخلفيات المعرفية للتكامل المعرفي بين علم الأصوات وعلم الموسيقى دراسة في (الموسيقى الكبير للفارابي) و (سر صناعة الإعراب لابن جني)

The Backgrounds of Knowledge Integration between the Science of Sounds and the Science of Music, Case Study in the two Books of: *The Great Music* by Al-Farabi and *The Secret of Producing Syntax* by Ibn Djenni

[*] **محمد مباركي**

Mebarki Mohamed

جامعة العربي التبسي ، تبسة/ الجزائر

University of Tebessa- Algeria

mbrmed56@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/02/21	تاريخ القبول: 2019/12/04	تاريخ النشر : 2020/03/15

ملخص البحث

المعرفة شجرة ذات أصل ثابت وجذور ممتدة في أعماق الفكر البشري البعيد، وهذه الشجرة بأصولها وفروعها تاريخ يحكي البدايات والتطورات للمعرفة البشرية، ومنها تاريخ البحث الصوتي الذي لم يكن وليد الصدفة وإنما هو إرهاصات متعددة تضافرت وكللتها مجهودات ، والتاريخ صادق أمين ، كما لا يبخس الناس أشياءهم؛ولقد أضحى الاشتغال بقضايا التكامل العلمي والمعرفي توجها عصريا في البحوث الأكاديمية نتيجة الانفتاح على الآخر والتقدم الهائل الذي عرفته البشرية الآن،فنحن نريد من هذا تقصي العلاقة بين علم الأصوات والعلوم الأخرى وغيرها لما لها من صلات وثيقة وترابط قوي لا تنفصم عراه؛ لأنه من إبداع النشاط البشري.

وفي هذا السياق وقع الاختيار على هذا العنوان، ومن أغراض هذه الدراسة الربط بين المعارف القديمة والحديثة، والكشف عن بعض القضايا الصوتية التي لا تزال محل دراسة. وقد ضبطنا بنية الدراسة في مقدمة تذكر الإشكالية والأهمية والأهداف، وخمسة مباحث كبرى تحمل مطالب، ثم خاتمة ضمّنّاها أهم الرؤى وأخلص النتائج

الكلمات المفتاحية:تكامل معرفي؛ أصوات؛ موسيقى؛ بحث صوتي؛ بحث موسيقي.

Abstract:

[*] محمد مباركي. mbrmed56@gmail.com

Knowledge is a tree of fixed origin and roots that extend deeply in the distant human thought, and this tree is a history that tells the beginnings and developments of human knowledge, including the history of sound research, which was not accidental, but is multiple eras combined and hardened by efforts. It also does not underestimate people's things; the issues of the scientific and cognitive integration have become a modern trend in the academic research as a result of the opening up to the other and the tremendous progress that humanity has known. We want here to explore the relationship between Phonetics and other sciences because of its close ties and strong interdependence; whose cords do not separate, because it is the creation of the human's activity.

In this context, the choice came on this title, one of the aims of this study is to relate between ancient and modern cognitive knowledge as well as the discovery of few sound problems, that are still being studied. We organized the structure of the current study in an introduction that mentions the problematic, importance, and objectives, beside five more big researches that carry requests, then a conclusion wherein we included the most important visions and the purest results.

Keywords: Cognitive Integration, Sounds, Music, Acoustic Search, Musical Research.

مقدمة

إن المعرفة شجرة ذات أصل ثابت وجذورها ممتدة في أعماق الفكر البشري، وفروعها تعانق عنان المستقبل، وهذه الشجرة بأصولها وفروعها تاريخ يحكي البدايات والتطورات عبر الخطين العمودي والأفقي للمعرفة البشرية، ومن تاريخ المعارف والعلوم تاريخ البحث الصوتي الذي لم يكن وليد الصدفة ولا نزيل الطفرة، وإنما هو إرهاصات متعددة كللتها مجهودات أصابت وأخطأت فلا فاضل ولا مفضول، إذ الإنسانية إنسان، والإنسان فكر بأطواره، قال تعالى " وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا" نوح 17، والتاريخ صادق أمين لا يداري ولا يماري، ولا يخون، ولا يزايد، ولا يحابي، كما أنه لا يبخس الناس أشياءهم، ولقد عبر ابن خلدون عن هاته الحقيقة بقوله " التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار وفي باطنه نظر وتحقيق" فالتاريخ مدونة قصة فعل الإنسان عبر القرون وشاهده الوحيد.

لقد أضحى الاشتغال بقضايا التكامل العلمي والمعرفي (التراثي والحداثي) توجها عصريا في البحوث الأكاديمية جراء النتائج المحصل عليها في شتى الميادين والمجالات المعرفية نتيجة الانفتاح على الآخر على مر العصور، والتقدم الهائل الذي عرفته البشرية الآن؛ وهي تلاقي وحدات تاريخ الأمم بحضاراتها المتنوعة في مركز واحد تتعدد أطرافه العلمية والمعرفية يكون هو المرجع الواحد والمنهل الواحد ، ونحن نريد من هذا تقصي العلاقة القائمة بين علم الأصوات والعلوم الأخرى كالموسيقى والقراءات القرآنية وعلم التجويد والبلاغة وعلم العروض والقوافي؛ وهي شبكة تنسلُّ من بعضها انسلالا لطيفا؛ تنساب منها وتنبعث أصواتا وألحانا لما لها من صلات وثيقة وترابط قوي حتى إنها كانت تعرف كلها عند القدماء بـ "علوم العربية".

وللأهمية الكبرى التي أولاها القدماء والمحدثون للصوت الطبيعي عامة والصوت البشري خاصة، وربط رأس الأمر بأطرافه ووصله بجذوره الأولى يهدف هذا البحث إلى معرفة كنه الأصوات عند العرب وطبيعتها، وعقد المزاوجة بينها وبين الموسيقى التي هي الأخرى صارت علما قائما، ولأن الموسيقى لغة سحرية تتناغم معها وبها كل عناصر الكون جاء الموضوع على مقدمة: تذكر الإشكالية والأهداف والدراسات السابقة ثم الأهمية، فبنية الموضوع العامة، ثم خاتمة تسفر عن نتائج يراها الباحث أنظارا قد تصيب وقد تخطأ.

أولا: الموسيقى عند العرب

لقد برع العرب قديما في الموسيقى علما وفنا، فاشتهرت شخصيات أجادت فن الغناء بأصواتها الجميلة، وتركت بصماتها في تاريخ الموسيقى نذكر منها: عزه الميلاء، وحبابه، وابن سريج ومعبد وابراهيم الموصلي، ودنانير وذات الخال، وزرياب وغيرهم كثير. وفي مقابل هؤلاء نجد علماء أجلاء اهتموا بالموسيقى فصنفوا فيها كتبا ورسائل وعدوا الموسيقى علما يبحث في النغم اشتهر منهم الكندي (توفي سنة 258هـ) له رسالة في الإيقاع، وابن المنجم (300هـ) وله كتاب النغم، والفارابي (339هـ) وله أشهر كتب الموسيقى عند العرب (الموسيقى الكبير) وابن سينا (428هـ) وله "جوامع علم الموسيقى" وابن زيلا (444هـ) وكتابه "الكافي في الموسيقى".

جاء تراث هؤلاء كلهم زاخرا بنظرة علمية للصوت الموسيقي مما أثار انتباه العلماء آنذاك وإلى الآن إلى التقاطع الحاصل بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، فقرؤوها قراءة صوتية تبرز مدى

النظرة العلمية الدقيقة التي كانت تمتاز بها الفترة العربية الثاقبة لعلوم العربية ومعرفة العلاقات التكاملية بينها.

لست متخصصا في علم الموسيقى ولكن دفعني الشغف بعلم الأصوات؛ وهي المادة التي أسند إلي تدريسها لأكثر من عقد في الجامعة، استشعرت فعلا علاقتها الوطيدة بعلم الموسيقى وهي المادة الخام لها، وقد دفعني هذا كله إلى الاطلاع على إنجازات ابن جني العظيمة في كتابه " سر صناعة الإعراب"، وقد صدق في قوله : " إن علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم".[1] وإن ما أفعله في هذا البحث هو طرح الإشكال أكثر من الإجابة عنه وربط ذلك بما أنجزه علماء العرب في فن تجويد القرآن والقراءات بأداءاتها المختلفة، والأصوات بمقاطعها ونغمها وتنغيمها ودلالاتها المختلفة، وربط ذلك كله بالفكر العربي الذي نضج في ظرف قياسي في إطار الإسلام، ففعل هذا الفكر نقلة نوعية خالصة.

وإذا ما عرجنا على عمل المحدثين في هذا الموضوع نجد الكثير من العرب الذين كرعوا من المدارس الموسيقية العربية والغربية بالآلات المتطورة أمثال: "دراسات في الموسيقى العربية" لشهرزاد قاسم حسن "والسماع عند العرب" مجدي العقيلي ، "الشعر والغناء في مكة والمدينة" لشوقي ضيف.

1- فما الموسيقى إذا؟

يعرف ابن جني الموسيقى بأنها "علم رياضي يُبحث فيه عن أحوال النغم من حيث الائتلاف والتنافر وأحوال الأزمنة المتخللة بينها ليُعلم كيف يُؤلف اللحن، وقد دل حد الموسيقى على أنه يشتمل على بحثين أحدهما البحث على أحوال النغم أنفسها وهذا القسم يختص باسم التأليف والثاني البحث عن أحوال الأزمنة المتخللة بينها، وهذا البحث يختص باسم علم الإيقاع[2]

ويضيف الفارابي أن دلالة الموسيقى" معناه الألحان، واسم اللحن قد يقع على جماعة نغم مختلفة رتبت ترتيبا محدودا وقرنت بها الحروف التي ترتب منها الألفاظ الدالة المنظومة على مجرى العادة في الدلالة بها على المعاني[3].

فالموسيقى عند الفارابي -إذا- هي دراسة الألحان ولا يوجد تعارض بين تعريف ابن سينا وتعريف الفارابي، فالتعريفان متكاملان؛ فيلتقي علم الأصوات وعلم الموسيقى في كونهما يبحثان معا في ماهية الصوت، فالمبادئ النظرية في علم الموسيقى هي" الفحص عن الأصوات وعن النغم

من جهة الأشياء والتي هي أسباب حدوثها ووجودها، وأسباب الأشياء العارضة لها وتلك هي الأشياء ينظر فيها صاحب العلم الطبيعي[4]، ويميز سليم الحلو بين علم الموسيقى وفن الموسيقى؛ فعلم الموسيقى عنده " من العلوم الطبيعية المبنية على القواعد الرياضية، وهي ترتيب تعاقب الأصوات المختلفة في الدرجة المؤتلفة المتناسبة بحيث يتركب منها ألحان تستسيغها الأذن مبنية على موازين موسيقية مختلفة تكسبها طلاوة، أما فن الموسيقى عنده فينحصر في علم العزف على الآلات الموسيقية، وعلم الغناء بموجب الأوزان الموسيقية الزمنية التي تجعل اللحن مؤلفا من عبارات موسيقية متساوية في أزمنتها (البيضاء وزمانها، السوداء وزمانها، المستديرة وزمانها) ولو اختلفت في أنغامها [5]؛ فالأول –إذا– علم نظري يبحث في المبادئ النظرية للصوت الموسيقي، أما الثاني فهو الجانب التطبيقي الذي يهتم بطريقة العزف عن الآلات. فالصوت هو المادة الخام لعلم الموسيقى كما هو الحال في علم الأصوات؛ فهو في عرف العلماء الطبيعيين موضوعه دراسة الأصوات عامة، هذه الظاهرة الطبيعية التي تنشأ من ذرات اهتزاز الأجسام الرنانة، وأما في عرف الموسيقيين فالصوت هو علم تركيب الطبقات الصوتية المتآلفة التي تكون لحنا فيُتغنى به إما بواسطة الصوت الإنساني أو بواسطة الآلات الموسيقية[6].

ونريد بالموسيقى هنا هي لغة الكون بأسره تتناغم أصوات الطبيعة كلها فتعطي هذا الإيقاع الذي يسمى موسيقى، فهي — إذا– العلم الذي يدرس الأصوات في سياق نغم موزون متجانس ومتآلف جرسا وعذوبة.

2– علاقة العرب بالموسيقى:

لقد كانت الموسيقى لدى العربي أنهارا تروي الأرض والحياة، ودماء تدفع الحياة في قلوب البشر، وسرا يحكم الروح، وكانت أشبه بوحي يرتفع بالإنسان ويجعل منه حكمة وعبقرية، فالموسيقى نبض الوجود لدى العربي وإيقاع الأمل، وهي عزاء وبراء، إيقاع تردده الطبيعة والأساطير والعقائد والأحلام [7]، كما تمثل قطاعا خاصا في حياة العربي وهو يحدو وراء ناقته، وهي لذلك ترتبط به في حله وترحاله عبر الأجيال.

وإذا ما حاولنا البحث في المعنى الذي تتجسد فيه الأصوات الموسيقية، وجدنا أن الأصوات في الموسيقى تقابل الكلمات في اللغة، وبالتالي فإنها تقابل الكلمات في الفنون التي تعتمد اللغة في وجودها أساسا، وفي وسيلة تعبيرها بوجه عام، والكلمة — كما هو معلوم– هي التي تحمل المعنى

والفكر، وبالتالي فإن أصوات الموسيقى تشارك اللغة في نفس الصفات الفكرية عن طريق مفرداتها اللغوية أو الصوتية السمعية؛ فالجملة في الأدب والشعر تقابلها الجملة الموسيقية التي هي مثابة قانون داخلي للبناء، كما توجد قوة التأثير الموسيقي على المستمع التي تحرك فيه المشاعر وتفجر بداخله الأحاسيس [8].

تقول الروايات أن العرب قد أخذوا الموسيقى عن الفرس في أواخر القرن الثاني للهجرة، ثم أدخلوا عليها ما تستقيم به صناعة الألحان باللغة العربية ، فترنموا بالشعر وربطوا الأصوات على ضروب الإيقاع ، وولدوا ألحانا شجية لم يأت بها أحد من قبل ، وظهر منهم نوابغ في صناعة الألحان وأدائها، وظهر منهم مؤلفون اشتهروا بأصالة الرأي وقوة الإدراك والتعمق في دراسة فنون هذه الصناعة[9].

3- أشهر من كتب في الموسيقى:

وأشهر من كتب في الموسيقى من العرب أبو نصر محمد الفارابي وهو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي، ولد عام 260 هـ/874 م في فاراب في إقليم تركيتان وتوفي في عام 339هـ / 950م ، فيلسوف مسلم اشتهر بإتقان العلوم الحكمية وكانت له قوة في صناعة الطب، وسمي بهذا الاسم الذي اشتهر به نسبة إلى المدينة التي عاش فيها (فاراب)، كان أبوه قائد جيش، وعاش ببغداد مدة ثم انتقل إلى سوريا وتجول بين البلدان وعاد إلى مدينة دمشق واستقر بها إلى حين وفاته، يعود الفضل إليه في إدخال مفهوم الفراغ إلى علم الفيزياء، تأثر به كل من ابن سينا وابن رشد، تنقل في أنحاء البلاد ، وفي سوريا قصد حلب وأقام في بلاط سيف الدولة الحمداني فترة ثم ذهب إلى دمشق وأقام فيها حتى وفاته عن عمر يناهز ثمانين عاما ودفن في دمشق، ووضع عدة مصنفات وكان أشهرها كتاب حصر فيه أنواع وأصناف العلوم، ويحمل هذا الكتاب إحصاء العلوم.

سمي الفارابي " المعلم الثاني" نسبة للمعلم الأول أرسطو والإطلاق بسبب اهتمامه بالمنطق لأن الفارابي هو شارح مؤلفات أرسطو المنطقية.

ثانيا: علاقة الموسيقى بالعلوم الأخرى

الموسيقى في الإطار العام هي فن مؤلف من الأصوات والسكون عبر فترة زمنية، أما خصائص الصوت التي تصف الموسيقى فهي طبقة الصوت (pitch) وتشمل اللحن والتجانس الهرموني

والإيقاع بما فيه الميزان، والجودة الصوتية لكل من جرس النغمة (timbre) والزخرفة (articulet in) والعذوبة(texture)، ويعتقد أن كلمة موسيقى يونانية الأصل، وقد كانت تعني سابقا الفنون عموما، غير أنها أصبحت فيما بعد تطلق على لغة الألحان؛ وهي صناعة يبحث فيها عن طبيعة الألحان وتنظيم الأنغام وعن طبيعة العلاقات فيما بينها، وعن العلاقات وأوزانها من حيث الاتفاق والتنافر.[10]

ويذهب كثير من المنظرين مسلمين وأوروبيين إلى أن الموسيقى تنتمي في أصولها إلى علم الرياضيات، ويذكرنا التاريخ أنه منذ القرن الثالث الهجري اتضح الفرق بين الممارسة العملية والمعرفة النظرية للموسيقى التي كانت بائنة منذ العهد اليوناني لدى أفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم، كما يجدر بنا – يقول المؤلف– أن نشير إلى أن أهم ترجمة حدثت في الموسيقى كانت في عهد الخليفة المنصور، حصل ذلك في كتاب (الألحان الثمانية) لبطليموس، وقد سجل التاريخ للعرب مؤلفات في غاية القيمة العلمية في علم الموسيقى كيعقوب بن اسحاق الكندي الذي تناول السلم الموسيقي وأورد كثيرا من المصطلحات الموسيقية وذلك لسبق معرفته بالمصادر اليونانية، ثم إخوان الصفا في بداية القرن الرابع الهجري ثم ابن سينا الفيلسوف والطبيب العربي في كتابه (الشفا) الذي تضمن الموسيقى النظرية ورسالة الموسيقى في كتابه (النجاة)، وظهر في القرن السابع الهجري العالم صفي الدين الأرفوي بكتابيه (معرفة النغم والأدوار)، و(الرسالة الشرفية في علم النسب التأليفية والأوزان الإيقاعية) والقائمة لا تنتهي.. ومنذ ذلك فقد عرفت الموسيقى تحديدا دقيقا عند العرب يكشف عن رسوخ قدمهم في هذا الفن العريق ويبين عن ثقل زادهم في هذا العلم العميق، فهي عندهم صناعة في تأليف النغم والأصوات ومناسباتها وإيقاعها وما يدخل منها من الجنس الموزون والمؤتلف بالكمية والكيفية[11].

والعلم بالموسيقى يختلف من المبدأ عن بقية العلوم والفنون الأخرى بسبب انعدام صورة المادة في موضوعها؛ فالأصوات لا هي منظورة ولا هي ملموسة كما في فنون الرسم والنحت، حتى يكون للنظر أو اليد قسط وافر في سهولة إدراكها واستيعاب أصولها، ولذلك كان طبيعيا أن يشترك السمع والبصر مع الإحساس فيتنبه المخ حين تقرع التراكيب الصوتية السمع، فيحدث الشعور بكيفياتها المختلفة، وكما أن السمع هو الطريق المباشر الذي يصل بين الأصوات وبين

مراكز الشعور بها، كذلك يبدو أن النظر يتخيل كيفيات الأصوات بالاشتراك مع الإحساس الباطن بطريق غير مباشر، وكأنها رسوم متحركة ذات أشكال متعددة يمكن إدراكها وتصورها.

فالناظر في صناعة الموسيقى إنما هو ينظر في علوم عدة وموضوعات، فالنغم ومقاديرها ومناسباتها واقتراناتها وخصائصها موضوعات في العلوم الطبيعية، ثم أجزاء الأقاويل التي تقترن بالنغم وأوزانها وأجناسها وتزحيفاتها وما يعرض لها هي موضوعات في علوم اللغة، فتتميز الألحان وتختلف تبعا لافتراق اللغات ولهجاتها وطرائق تلحينها[12].

ومنها جاء على علم التجويد أي تزيين الحروف بلحون العرب وأصواتها من شد ومد وهمز وتسهيل وإظهار وإخفاء وفك وإدغام وغنة وكلها تعتمد على مقامات موسيقية معينة تحكمها ضوابط خاصة للقراءات القرآنية؛ حيث إن قراءة القرآن لها أحكامها وآلياتها الخاصة بكل حرف، ولأن القرآن خطاب للبشرية فإن تأثيره على المخاطب ليس مجرد شعور وإحساس أو مجرد فهم بل هو يتعدى ذلك إلى مدى اكتشاف أسرار هذا الخطاب وكنهه وجوهر هذا الخطاب وليس هو المألوف في لغة الكلام على مجرى العادة، هذه موسيقى القرآن الخاصة، كذلك تنقل إلينا الروايات أن أعيان قريش كانوا يسترقون السمع لتلاوة القرآن ثم يلومون بعضهم بعضا عندما، فسحر القرآن هيمن على أسمائه، وقد تتعلق صناعة الموسيقى بعلوم أخرى لا تجانسها في المادة أصلا كالطب الذي ينصح بعض المرضى بالمكوث في مكان هادئ على وقع نغمات هادئة؛ لأن النفوس إذا كلت ملت فيجب الترويح عنها ويقال أن الموسيقى تؤثر على النباتات أيضا فجيء بآلات موسيقية لحقلين متجاورين لهما تربة واحدة ومناخ واحد فعزفت أنغام على أحد الحقلين ولم توضع في الآخر فانتعش الحقل الأول ونبت عشبه وأجدب الحقل الثاني وأقفر،كما للموسيقى حضور قوي في علم البلاغة ويظهر ذلك جليا في شروط الفصاحة وفي عدم تنافر أصواتها مجتمعة ولا ضعف تأليف ولا تعقيد لفظي أو معنوي ولا كثرة التكرار الذي يخل بالذوق الرفيع ولا يؤدي وظيفة بلاغية، فكل يدخل في جانب الإيقاعات التي يمجها السمع والذوق وبالتالي جرد منها الكلام البليغ الفصيح.

وفي علم العروض تعد الوحدات الصوتية من أهم العناصر التي قام عليها هذا العلم وتظهر هذه الأهمية في الحركة والسكون اللذين تقوم عليهما التفاعيل، وللأسباب والأوتار دور فعال في الجانب الصوتي الإيقاعي ظهرت أهميته منذ القديم على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد قيل

إن الخليل هذا قد سئل عن علم العروض، هل كان قد عرض له أصلا؟ فقال نعم مررت بالمدينة حاجا، فبينما أنا في بعض مسالكها إذ نظرت لشيخ على باب دار وهو يعلم غلاما ويقول له:

نعم لا نعم لا لا نعم لا نعم لا نعم لا لا نعم لانعم لا لا

فدنوت منه وسلمت عليه، وقلت له: أيها الشيخ ما الذي تقوله لهذا الصبي فقال: " هذا علم يتوارثه هؤلاء عن سلفهم، وهو عندهم يسمى التنغيم، قلت: لم سموه هكذا؟ فقال: لقولهم نعم نعم، فقال الخليل: فقضيت الحج، ثم رجعت فأحكمته[13].

لقد وضع الخليل مجموعة وحدات صوتية أساسا لنظامه في العروض، وقد بناها معتمدا المفهوم الصوتي الذي كان شائعا ومستعملا في النحو والصرف واللغة، وذلك هو مفهوم الحركة والسكون، فلقد صاغ الخليل الأجزاء وهي الوحدات الإيقاعية الأساسية في بيت الشعر صياغة خاصة، فاختار من الصيغ الصرفية لاسم الفاعل أربعا ثلاث منها في حالة المذكر المفرد (فاعلن/مستفعلن/متفاعلن) وواحدة في حالة جمع المؤنث (فاعلاتن) ومن الصيغ الصرفية لاسم المفعول اثنان في حالة الجمع (مفاعيلن/مفعولات)، ومن صيغ المبالغة واحدة (فعولن)، ومن صيغ المصدر واحدة (مفاعلتن)، ونون سبعا منها وأظهر نونها، لم يقف في طريق تنوينها الواحدة من السبع أنها ممنوعة من الصرف، فقد صرفها ونونها، أما الثامنة (مفعولات) فلم ينونها، وحرك آخرها، مما يدل على أنه منعها من الصرف[14].

ثالثا: الفارابي حياته وتلمذته

عكف في مسقط رأسه على دراسة طائفة من مواد العلوم والرياضيات والآداب والفلسفة واللغات وعلى الأخص التركية وهي لغته الأصلية بجانب معرفته للغات العربية والفارسية واليونانية.

ثم خرج من بلده حوال سنة 310هـ، وهو يومئذ يناهز الخمسين، قاصدا العراق، حيث أتم دراساته، فيما بدأ فيه في مسقط رأسه وأضاف إليه مواد أخرى كثيرة، فدرس في حرّان الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقي المسيحي يوحنا بن حيلان، ودرس في بغداد الفلسفة والمنطق على يد أبي بشر متى بن يونس، وهو مسيحي كان حينئذ من أشهر مترجمي الكتب اليونانية ومن أشهر الباحثين في المنطق، ودرس في بغداد كذلك العلوم اللسانية العربية على يد ابن السراج، وأتيح له فيها أيضا دراسة الموسيقى وإتمام دراساته في اللغات والطب والعلوم والرياضيات، ولا غرابة أن يتتلمذ في هذه السن المتقدمة، فقد كان دأب العلماء في هذه العصور يطلبون العلم من

المهد إلى اللحد، كان الفارابي مولعا بالأسفار في طلب العلم ونشره والإحاطة بشؤون الجماعات، فانتقل من العراق إلى الشام حوال سنة 330هـ، حيث اتصل بسيف الدولة بن حمدان الذي عرف له فضله، وأكرم وفادته، وعاش في كنفه منقطعا إلى التعليم والتأليف، وكان في أثناء إقامته بالشام يتنقل بين مدنها وخاصة بين حلب (عاصمة الحمدانيين) ودمشق التي كانت في حوزتهم تارة وتخرج أخرى، وقد سافر مرة من الشام إلى مصر، وكان ذلك على الراجح سنة 338هـ ثم رجع منها إلى دمشق حيث توفي[15] .

وقد آثر الفارابي حياة الزهد والتقشف فلم يتزوج، ولم يقتن مالا، ولم يشأ أن يتناول من سيف الدولة إلا أربعة دراهم في اليوم —كما يذكر كثير من الرواة – ينفقها فيما احتاج إليه من ضروري العيش، وقد اكتفى بذلك قناعة منه، وكان في استطاعته وهو الأثير عند الملك الجواد سيف الدولة بن حمدان أن يكتنز الذهب والفضة ويقتني الضياع، ويروى أنه قد بلغ به التقشف أنه كان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف مستضيئا بقنديل الحارس، لأنه لم يكن يملك قنديلا خاصا، وأنه قد بقي على ذلك أمدا طويلا يؤثر العزلة والتفكير، وقد طالت إقامته بدمشق، كما يقول ابن خلكان في " وفيات الأعيان" يقضي معظم أوقاته في البساتين وعلى شواطئ الأنهار، فلا يكون إلا عند مشتبك رياض، حيث يؤلف ويقصد إليه تلاميذه ومساعدوه.

يذكر معظم المؤرخين أن الملك سيف الدولة قد صلى عليه في أربعة عشر أو خمسة عشر من خواصه، وأنه قد دفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير، ويدل كلامهم على أنه قد توفي وفاة طبيعية[16] .

1- كتابه "الموسيقى الكبير":

على الرغم من كثرة مؤلفات الفارابي في كافة العلوم، ومنها الموسيقى، فلم يبق من كتبه سوى كتاب واحد هو كتاب " الموسيقى الكبير" الذي طبعت نسخة منه بعناية الأستاذ " لاند" كورقة في المؤتمر الشرقي السادس بـ ليدن عام 1882م، ثم تُرجم الكتاب بأكمله إلى اللغة الفرنسية بعناية البارون " دي أرلنجيه" في جزأين، ظهر الأول منهما عام 1930 قبيل وفاته بتونس سنة 1932، وظهر الجزء الثاني عام 1935، وكتاب الموسيقى الكبير يعد بحق من أعظم مؤلف في هذا العلم، وضعه العرب منذ القرون الأولى لظهور الإسلام إلى وقتنا الراهن.

ويعد كتاب " الموسيقى الكبير" من شوامخ الكتب العربية في علم الموسيقى، إذ لم يسبق إلى طرق موضوعه أحد قبله، ولم يزد عليه من تأخر عنه من العرب القدماء، فقد جاء هذا المؤلف شاملا، مستوفيا لجميع جوانب صناعة الموسيقى نظريا وعمليا.

وكتاب " الموسيقى الكبير" مخطوط ضخم حاز على شهرة عالمية في الأوساط التي تعنى بدراسة الموسيقى لغزارة مادته ، وقوة أسلوبه المتفرد والذي سلكه الفارابي في تصنيفه، وليس مستبعدا أن تكون اتجاهات الموسيقى العالمية قد نهلت من علوم هذا الكتاب، بعد أن نشطت حركة الترجمة في القرون الوسطى حيث ترجمت كتب الطب والرياضيات والعلوم الأخرى.

وهذا الكتاب يشتمل على جزءين:[17]

الجزء الأول: في المدخل إلى صناعة الموسيقى **والجزء الثاني**: في الصناعة نفسها وفي ذكر الآلات المشهورة والإيقاعات، وفي تأليف الألحان الجزئية.

وعندما يتحدث الفارابي عن الصيغة الرئيسية للأداء يقول:

" الألحان الملذة، وهي التي تكسب النفس لذة وأنقا مسموعا، دون أن يكون لها صنع آخر في النفس". والألحان المخيلة، وهي التي تفيد النفس مع تلك التخيلات وتوقع فيها تصورات أشياء، وحالها في ذلك حال التزاويق والتماثيل المحسوسة بالبصر.

والألحان الانفعالية هي التي تحدث الانفعالات؛ فهي إما مزيدة لها أو منقصة منها، ثم تطرق الفارابي إلى نشأة الألحان الغنائية في الإنسان وهي غريزة طبيعية في طلب اللذة أو التخيل أو الانفعال، وهذه هي غايات الألحان " ويعد الحداء أول الغناء عند العرب فكان غناؤهم هذا يساعد الإبل على تحمل الجهد والتعب في أسفارهم الطويلة ويبعث فيها النشاط؛ فالحداء هو غناء يسير على ميزان الإبل ويحدو على سيره الحادي لذلك تغنى الشاعر العربي القديم بهذا النمط من النغم في غنائيته التي مطلعها:

لَمَّا أَنَاخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عِيسَهُمُ وَثَوَّرُوهَا فَثَارَتْ بِالهَوَى الإِبِلُ

يَاحَادِيَ العِيسِ عَرِّجْ كَيْ أُوَدِّعَهَا يَا حَادِيَ العِيسِ فِي تَرْحَالِكَ الأَجَلُ

وكان الغناء عند العرب في ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزيج ؛ فأما النصب فهو غناء الركبان وهو الذي يقال له المراثي يغنيه الفتيان، وأما السناد فهو الثقيل ذو الترجيع والنغم والنبر، وأما الهزيج فهو الخفيف الذي يمشي عليه ويلهي ويستخف الحلوق[18].

ولو تمعن القارئ المعاصر فيما ورد من نتف عن فعل الموسيقى التي جاءت على لسان الفارابي في كتابه " الموسيقى الكبير" آنفا وقارن بينها وبين ما اشتملت عليه صناعة الموسيقى المعاصرة، لتبين له أن النهضة الموسيقية التي تعيشها أوروبا من قرون عصر النهضة وحتى الآن تستند في مرجعيتها إلى كتاب الفارابي " الموسيقى الكبير" ولسنا هنا بصدد التفاخر بمعطيات الفارابي ولكن الاستشهاد بها جاء ليؤكد حقيقة التمازج الحضاري الإنساني الذي لا تحده حدود الزمان ولا حدود المكان[19].

لقد رُتّبت مضامين كتاب " الموسيقى الكبير" في ثلاثة فنون:

الفن الأول: في تعريف معنى اللحن، وكذا أصل الموسيقى، واختلاف هيئاتها العملية والنظرية وهذا في الجزء الأول الذي تكلم فيه عن صناعة الموسيقى، فهو يذكر أسباب نشأة هذه الألحان الغنائية فيقول الفارابي " والتي أحدثت الألحان هي فترة غريزية للإنسان ومنها الهيأة الشعرية المركوزة فيه من أول كونه، ومنها الفترة الحيوانية التي يصوت بها عند حال من أحوالها اللذيذة أو المؤذية، ومنها محبة الإنسان الراحة عقب التعب؛ فهذه الفترة الحيوانية في الإنسان عقب التعب تميل إلى طلب الاسترخاء والراحة بل يستعين الإنسان بالغناء للهروب من الإحساس بالزمن، ويعتبر الهم والحزن من العوامل التي تجعل الإنسان يتخيل طول الزمن.

ولقد فطن الشاعر قديما حين أدرك أن الزمن لا يتبدل ولا يتغير وإنما ذلك كله أوهام من خيال الإنسان وذلك في قوله:

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنَمْ وَنَفَى عَنِّي الكَرَى طَيْفُ أَلَمْ[20]

والأنغام لا يقتصر تأثيرها فقط على الإنسان بل تؤثر على الحيوانات أيضا وذلك مثلما يعرض للجِمال العربية التي هي دأب العرب في صحرائهم وباديتهم عند الحداء.

الجزء الثاني: في مبادئ المعرفة بصناعة الموسيقى، فعرف الألحان وأصولها، والنغم وعددها وقسم هذا الجزء إلى ثلاثة فنون **جعل الفن الأول** في أصول الصناعة سماه "أسطقسات صناعة الموسيقى"، ورتبه في مقالتين.

الأولى هي حدوث النغم والأصوات، وأسباب الحدة والثقل فيها، وتعريف الأبعاد الصوتية، ونسبها ومقادير أعدادها بالتركيب والجمع، والتصنيف والتقسيم، وقد جعل المؤلف الأعداد العظمى في الترتيب دالة على النغم الأثقل بدلالة أطوال الأوتار المحدثة للنغم، ثم عدّ المؤلف رُتب

الأجناس المتوالية بالأربعة نغم، وذكر أصنافها وجعلها في جداول منسوبة أعدادها إلى طول وتر مفروض.

أما الثانية فقد بحث في أصناف الجماعات التامة التي تحيط بالنغم المتجانسة في دورين وأسماء النغم اللاحقة بكل منها.[21]

والفن الثاني في هذا الجزء قد خصه بالحديث عن الآلات المشهورة عند العرب آنذاك وهي آلة العود والجماعات التي تستعمل في هذه الآلة وعدد فيها النغم والقوى المتجانسة وملاءمتها على الدساتين المشهورة، وذكر كثيرا من التسويات الممكنة في هذه الآلة.، وكذلك أصناف الطنبور والمزامير والرباب والمعازف وأصنافها وقارن بين أنغام هاته الآلات وقايس بينهما وذكر كثيرا من ترتيبات الأوتار في الأجناس، ثم أردف بقول مجمل في الآلات ذوات الأوتار وما يمكن منها أن يتم بها الأمر العلمي في تعيين أماكن النغم فيه[22].

أما الفن الثالث فقد جعله في تأليف النغم وطرائق الألحان، وفي صناعة الألحان الجزئية ورتبه من حيث صنف الألحان وهو ما يسمع من النغم بإطلاق ومن حيث الجماعات التامة المنفصلة في جداول، ثم من حيث أصناف الانتقالات بين النغم والمبادئ التي ينتقل منها في الجماعة، وذكر بعدها أزمنة الإيقاعات المشهورة عند العرب قديما ثم أردف هذا بذكر أحوال النغم الانفعالية والمختلفة، وأصناف الألحان الكاملة[23].

لقد كان –إذا– لعلماء العرب إنتاج غزير وأثر بارز في الموسيقى في المعرفتين النظرية والتطبيقية، وكان أستاذهم في ذلك هو أبو نصر الفارابي بكتابيه الموسيقى الكبير ، والموسيقى الصغير، وأن الموسيقى عنده (الفارابي) بالتحديد هي صناعة تأليف النغم والأصوات ومناسباتها وإيقاعاتها وما يدخل منها في الجنس الموزون والمؤتلف بالكمية والكيفية، وأن الأصل فيها غريزة في الإنسان أوجدتها له الضرورة الملحة عليه والرغبة الباطنة فيه بإخراج الأصوات على أنحاء مختلفة عند الانفعالات الحادثة في النفس فيتلذذ بها عند طلب الراحة، أو يُسكِّن بها الانفعالات، أو تكون معينة على تخييل المعاني في الأقاويل التي تقترن بها.

لذا قال ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة "وكان الكلام منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم الأخلاق، وطيب الأعراق، وذكر الأيام الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسماحتها لتهرئ نفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها

موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا، لأنهم شعروا به .. وقال أحمد حسن الزيات في كتابه " تاريخ الأدب العربي" وليس مما يسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة وتقلبت به الحوادث، وعملت فيه الألسن حتى تهذب أسلوبه، وتشبعت به الحوادث، والمضمون أن العرب خطوا من المرسل إلى السجع إلى الرجز، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد، فالسجع هو الطور الأول من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة فكانوا يشرحونها بالأناشيد، ويستعملونها بالأدعية ويخبرون الناس بأخبار الغيب في جمل مقفاة موقعة أطلقوا عليه اسم السجع تشبيها بسجع الحمامة لما فيه من تلك النغمة الواحدة البسيطة، فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء، ومن الدعاء إلى الحداء، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز، ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان"[24]، بهذا تكون الموسيقى المكون الأساسي للشعر العربي عامة و العربي الذي يحدو وراء ناقته ليصبح هذا الحداء ألفاظا وكلمات ومعاني موزونة ومقفاة تروح عن النفس وتزيل عنها متاعبها لذلك تناغم أبو القاسم الشابي مع كلماته فالتصقت بروحه ووجدانه:

أنت يا شِعر فِلْذَةٌ مِنْ فُؤَادِي أنت يا شِعْرُ قِطْعَةٌ مِنْ وُجُودِي

ومن قبله أحسن أبو العلاء المعري حين قال:

وَالحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَينِ رَوْنَقُهُ بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ

فهو مخزون طبيعي في النفس يثيره ما يحيط بالإنسان من عوامل كثيرة تؤثر فيه فيرسلها نغمات وترنمات خافتة تترجمها بعد ذلك ألفاظ لغوية منطوقة، ولقد قيل: الإنسان أنشد قبل أن يتكلم .. ومن هنا نجد أن العلوم انبثقت من أحاسيس ومشاعر الإنسان ونظرته إلى محيطه ومتطلبات حياته، حتى أن القرآن الكريم ذكر تأثير الصوت الشجي على الكائنات فقال مشيدا بعطائه داوود فضلا « ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه الطير» سبأ 10؛ أي رجعي معه التسبيح، فكان النبي داوود تستجيب معه كل الكائنات وتترنم.

رابعا: ابن جني حياته واجتهاداته وجهوده في مفهوم الصوت والصوت اللغوي

1- حياته ونشأته:

وهو أبو الفتح عثمان بن جني النحوي الأزدي بالولاء كان أبوه روميا مملوكا لسليمان فهد بن أحمد الأزدي من أعيان الموصل، ولد أبو الفتح سنة 334 هـ، وقد لازم أبا علي الفارسي أربعين عاما حيث يذكر أستاذه كثيرا في سر الصناعة، وكان في النحو على المذهب البصري، وأخذ

العلوم والمعارف عن أحمد ابن عمر الموصلي وأبي بكر بن الحسن المعروف بابن مقسم، وروى عن أبي خرج الأصبهاني صاحب الأغاني، وعن أبي حاتم السجستاني، وعن أبي العباس المبرد.

له من الكتب الكثير أشهرها: الخصائص، النحو وسر صناعة الإعراب والتصريف الملوكي والمحتسب في شرح الشواذ، والمنصف في شرح التصريف للمازني واللمع في النحو وهذه كلها لها علاقة بالمكون الصوتي والإيقاعي؛ فمن الإيقاع ينتج الصوت ومن الصوت تنتج الصيغة النغمية ومن الصيغة ينتج الإيقاع ومن الإيقاع تنشأ الدلالات الصوتية المختلفة [25].

2- جهوده في دراسة الصوت اللغوي:

ويعد أبو الفتح بن جني (392هـ) بحق في البحث الصوتي رائدا ومجددا ومنظرا، نتيجة منجزيه الكبيرين (سر صناعة الإعراب) و (الخصائص)؛ إذ هما يمثلان أول موسوعة علمية متخصصة في الصوتيات العربية؛ حيث لم يصنع هذا الصنيع أحد قبله أو بعده، بدءا من مقدمة كتابه (سر صناعة الإعراب) تراه يصرح بمنهجه في البحث الصوتي لتلمس فيه فكره، وتتلمس فكرته، وتتثبت من وجهته، فيذكر أحوال الأصوات في حروف المعجم العربي، من مخارجها ومدارجها، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهمومها، وشديدها ورخوها، وصحيحها ومعتلها، ومطبقها ومنفتحها، وساكنها ومتحركها، ومضغوها ومهتوتها، ومنحرفها ومشربها ومستويها ومكررها، ومستعليها ومنخفضها[26].

كما يمثل ابن جني مرحلة تطور عميق في الدرس اللغوي عامة والصوتي خاصة في كتابه (سر صناعة الإعراب) من حيث المفاهيم الإجرائية، وآليات البحث في أصوات العربية تحديدا وتصنيفا، كما جعل علم الأصوات المستوى القاعدي الذي تقوم عليه ما في المستويات اللغوية الأخرى من صرف ونحو وبلاغة، واستهل حديثه عن الأصوات اللغوية بتحديدات أولية عن أهم الثوابت المساهمة في إنتاج الصوت والمقطع والحرف والجرس حيث قال في ذلك : " اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها[27].

وفي الحركة قال: " واعلم أن الحركات ابعاض حروف المد واللين وهي الألف والواو والياء فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمة.

ويدلك على ذلك أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هو بعضه[28]. وهذا يفسر الأساس الذي بني إليه الإيقاع في الموسيقى الذي يعرف بالمقامات لأن الحركات والسكنات تحدث إيقاعات موسيقية لها ذبذباتها الخاصة؛ فلكل صوت ذبذبة خاصة به، لذلك فذبذبات الأصوات الصامتة تختلف عن ذبذبات الأصوات الصائتة[29].

ولما كانت الموسيقى لها ارتباط بالصوت مثل ابن جني بالناي ومثل للجهاز الصوتي بآلة العود فقال " ... في الأول فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا (خالصا غير مشوب) كما يجري الصوت في الألف غفلا (ما لا علاقة فيه ولا أثر يميزه) بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة (المتتابعة على نظام) وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة، ونظير ذلك وتر العود؛ فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل، سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا، سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى أصبعه من أول الوتر تشكلت لك أصداء مختلفة، إلا أن الصوت الذي يؤديه الوتر غفلا غير محصور تجده بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور أملس مهتزا" فالوتر في هذا التمثيل كالحلق، والخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق،وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت في الألف الساكنة، وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذي يعرض للصوت في مخارج الحروف من المقاطع، واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا، وإنما أردنا بهذا التمثيل – يقول ابن جني– الإصابة والتقريب، وإن لم يكن هذا الفن مما لنا به تعلق، ولكن هذا القبيل من هذا العلم (علم الأصوات والحروف) له تعلق ومشاركة للموسيقى، كما فيه من صنعة الأصوات والنغم[30].

لقد نفخت الموسيقى في عقل الإنسان فحركت أحاسيسه ومشاعره ووجدانه وتفاعل مع الطبيعة وتجاوب معها في كل حركاته وسكناته وارتحلت الموسيقى من عصر إلى عصر، وطور أصحابها آلاتها فأضاف عالم الموسيقى الآخر (زرياب) الأندلس الوتر الخامس للعود واشتغل من كان في عصره وبعده بالموسيقى حتى غدت لغة الكون بأسره، لقد غنى جبران خليل جبران في قصيدة رقيقة بالموسيقى فقال:

أَعْطِنِي النَّايَ وَغَنّْ فَالغِنَاءُ سِرُّ الوُجُود
وَأَنِينُ النَّايَ يَبْقَى بَعْدَ أَنْ يَفْنَى الوُجُودُ.

ومن هنا نخلص أن الصوت قد تبوأ منزلة هامة ومرموقة في كتب الموسيقيين العرب، وأعدوه من العلوم الطبيعية؛ فحللوا ماهيته على المستوى الفيزيائي وعرفوا كيفية حدوثه والوسط الذي ينتقل فيه، وكيفية استقباله، ومدى تأثيره على شعور الإنسان والحيوان وعلى كل الكائنات الحية؛ لذلك فإن ائتلاف الأصوات الموسيقية راجع إلى اختلاف الأجسام الموسيقية المصوتة حيث توجد الآلات ذات النفخ كالمزامير أو التي تحدث أصواتا عن طريق القرع كالرباب. وتعد الحلوق من أكمل وأتم الأجسام الموسيقية تصويتا وكل الأجسام الأخرى مضاهية لها[31]. لذا شبه ابن جني الحلق بالناي والجهاز الصوتي بالآلات الموسيقية، كما فرق الفارابي بين المصوتات الممتدة (اللام والميم والنون)؛ لأنها مقترنة بالنغمة، وبين المصوتات القصيرة التي لا تمتد مع النغمة.

خامسا: دور المصوتات في الموسيقى

1- المصوتات:

تتبوأ المصوتات مكانا متميزا في الألحان؛ وذلك لما تمتاز به من خصائص صوتية تتيح لها القيام بهذا الدور " والحروف المصوتة تنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي: **الألف والواو والياء** وهي التي تسمى حروف المد واللين عند العرب؛ وهي المصوتات الطوال التي تقع أبدا على أواخر الكلام ممتدة في اللحن؛ فالألف حرف مستعل، والياء حرف منخفض، والواو حرف متوسط، وتنقسم هذه بدورها إلى ثلاثة أحرف ممتزجة من الألف والياء، ومن الياء والواو، ومن الواو والألف كقولك: (يا) و (وي) و (أي)، كل هذه تمتد بسهولة، فصارت الأحرف المصوتة تسعة، يضاف إليها الأحرف التي تمتد بسهولة هي: اللام والميم والنون وهي أحرف الغُنَّة، فتُكوّن الأحرف التي تقترن بالنغم وتساوقها ويسهل استعمالها، ولا تستكره خمسة عشر حرفا، وهذا ما يحتاج إليه في الألحان أشد الحاجة ويسمي اللغويون هذه الحروف المصوتة بحروف المد، ومن مواصفاتها الصوتية اتساع المخرج، مما يجعل الهواء يخرج مسترسلا غير مزاحم، ولم يقتصر إدراكهم على اتساع المخرج فحسب، بل أدركوا أن هناك اختلافا في درجة الاتساع، وهو ما يعرف في علم الأصوات بدرجة الانفتاح (degré d'eperture). يقول ابن جني :" الحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وواسعها وألينها الألف، إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف

للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو، والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال، أما الألف فتجده والفم معا منفتحتين غير معترضتين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سُفلا وعُلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاجّ الحنك عن ظهر اللسان فجرى الصوت متصعدا هناك؛ فلأجل تلك الفجوة ما استطال، وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت، فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر"[32].

ويوضح الفارابي الخصائص الإدراكية للنغمة الممتدة بأحرف المد قائلا:"والظاهر أن النغمة التي يمتد معها أحد هذه الثلاثة لها أنق في السمع"[33] وهذا الوضوح والأناقة في السمع راجع إلى الخصائص النطقية المذكورة آنفا ولهذا فهي تتبوأ المرتبة الأولى في سلم الجهر (Echelle de sonorité).

وقد لاحظ الفارابي أن صفة امتداد النغم مشتركة في جميع الأصوات الاحتكاكية وهو ما يسميها بالأصوات الممتدة، إلا أن خصوصية اللام والميم والنون تتجلى في كونها غير مستكرهة في السمع كما هو الحال في العين والحاء مثلا :" والحروف الممتدة بامتداد النغم ومنها ما لا يشبعه وهي هذه الثلاثة : اللام والميم والنون وما أشبه ذلك"[34].

فالفارابي يركز على أخص الخصوصيات اللام والميم والنون وهي الصفاء؛ وهي الصفة نفسها التي تتصف بها الحركات؛ الشيء الذي يجعل منها أصوات خالصة (Son Pure) " ذلك أن اللام تمتد وإن لم يسلك الهواء في مقعر الأنف، والميم والنون لا يمتدان إلا بمرور الهواء في الأنف، كل هذه الصفات الصوتية جعلت اللام والنون والميم مؤهلة للاقتران بالنغمة؛ فتكون بذلك الأصوات المقترنة بالنغمة هي المصوتات الطويلة (اللام، الميم، النون)، أما المصوتات القصيرة فإنها لا تمتد مع النغمة مادامت على قصرها، فإذا ساوقت النغمة امتدت حتى لا يفرق بينها وبين الطويلة"[35]. والسبب في هذا كله أن القدماء عموما كانوا يميزون بين الفتحة والضمة والكسرة من جهة، والألف والواو والياي من جهة أخرى؛ فالأوائل حركات والثواني حروف.

2- حسن الصوت:

من أسباب لذة الأنغام أن يكون منتج الصوت ذا صوت حسن. فهذا الرسول- صلى الله عليه وسلم- يخاطب أبا موسى الأشعري لما أعجبه حسن صوته " لقد أوتيت مزمارا من مزامير

آل داوود". فمن شروط المغني أو المنشد حسن الصوت؛ وذلك باعتماده في " غناءه على نبرات القوافي الشعرية ومخارج الحروف، وموسيقية الألفاظ، مترنما بأحرف الترنم، تاركا لحروف المد والإقصار حقها من المد في اللفظ والأداء، ملاحظا المعاني الدقيقة في نبرات الصوت وإجهاره، وهمساته الناعمة، متحمسا عند مواطن الحماسة، متعطفا في مواطن الاستعطاف[36].

فإذا نحن تأملنا هذه الشروط (النبرات، مخارج الحروف، موسيقية الألفاظ، أحرف الترنم والمد والإقصار، والأداء والجهر والهمس..) وجدناها في صميم الصوت، وليبس المغني فقط هو الذي تشترط فيه هذه الشروط، بل نجد قارئ القرآن أيضا مطالبا بإعطاء الأصوات حقها من المد وإتمام الحركات وإبقاء الغُنّات وتحقيق الهمز وتفكيك الحروف وإخراج بعضها عن بعض.

خاتمة:

أود أن أشير أن هذا الجهد لا يزال ينقصه التحري والتمحيص والإثراء؛ لأنه ورد من طريق الرواية والجمع والترتيب، وفي ذلك صعوبة من جهة ندرة الكتابة العلمية في الأصوات وتطورها تاريخيا. فمنذ القرون الهجرية الأولى عكف العرب على العلوم الأخرى وتركوا مجال الصوت غضا طريا، ومن جهة أخرى اهتمام العرب بالكتابة في الأصوات قد أخذ منحى جانبيا، كأن ركزوا على القراءات القرآنية وعلم التجويد عكس ما قام به الغرب.

فالاشتغال بقضايا التكامل المعرفي بين مختلف العلوم ظل هاجسا يشغل أذهان القدماء، بدءا بالفلسفة التي هي أم العلوم والمعارف في عصرها فانبثقت منها – تقريبا- كل العلوم والمعارف نفخت روحا في كل فكر إنساني ونشاطه الذهني، فصاغت علوما ومعارفانفصلت عنها (الفلسفة) على فترات متتالية، وكما هو معروف عند العرب في استغلال الأصوات والصيغ والتراكيب والبلاغة والعروض...) وكانت تعرف كلها ب " علوم العربية" بما في ذلك القراءات القرآنية وأحكام التجويد والموسيقى ...الخ، ولما ينتجه البحث في التكامل المعرفي من تفتح يمد جسور المعارف المختلفة ويسهم في فهم عميق للظواهر الإنسانية وعلم الإنسان وهو أصل الأصول للبحث العلمي والمعرفي، وفي المقابل تظل الأبحاث غير المنفتحة على علوم أخرى لا تبرح نتائجها الراهنة فتزداد ضيقا وانغلاقا، فلقد كان للعرب في القديم الباع الطويل والأيادي الممتدة إلى كل المعارف الإنسانية، فانصهر البحث العربي مع الكل وأخذ من الكل ما يضيف جديدا ويرقّي مستوى التفكير الانساني.

أما نتائج هذه القراءة الصوتية فيمكن إجمالها في العناصر التالية:

– الموسيقى علم رياضي يبحث في الأصوات والأنغام وأن الصوت الموسيقي قبل أن يكتسي بعدا جماليا فإن أساسه الصوت بصفته مادة حيوية لعناصر الكون كله.

– تبوأ الصوت مكانة مرموقة في كتب الموسيقيين العرب وأعدّوه من العلوم الطبيعية فحللوا ماهيته على المستوى الفيزيائي وبعثوا مقاماته وتأثيره على النفس.

– ترتبط النغمة الموسيقية بالحركة، ومن هذا المنطلق نستطيع مقابلة بين النغمة في علم الموسيقى والنبر في علم الأصوات كونهما مكوني حركة فيشكلان ظاهرة صوتية تقع على المقطع بصفته صوتية مستقلة.

– تقوم المصوتات بدور أساسي في الألحان لما تتمتع به من صفات نطقية وأكوستيكية تخوّل لها القيام بهذا الدور.

– إن أساس الدراسات الصوتية الحديثة قامت على الجهود التي بذلها القدماء لاسيما معجم العين في التركيز على المخارج والصفات والأداء والكيفية.

أعاد بعض المحدثين تصنيف وتقويم المصطلحات العملية للنطق وأعضائها الأساسية، كما استطاعوا أن ينزعوا الغموض عن بعض المصطلحات القديمة كالمخرج والحيّز والإطباق في مخابرهم وعن طريق أجهزة السمع والقياس والتسجيل ..الخ.

هوامش:

1– ابن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن مهداوي، دار القلم، دمشق، 1995، 9/1.

2– ابن سينا، جوامع علم الموسيقى، تح: زكرياء يوصف، تصدير ومراجعة أحمد فؤاد الأهواني ومحمود أحمد الحنفي، منشورات مكتبة آية الله العظمى، المرعشي النجفي، 1405هـ، دط، ص9.

3– الفارابي، الموسيقى الكبير، تقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة محمود أحمد الحنيفي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، دط، دت،ص47.

4– المرجع السابق، ص170.

5– سليم الحلو، الموسيقى النظرية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2، 1972، ص12.

6– نفسه، ص13.

7–يوسف السيسي: دعوة إلى الموسيقى، وزارة الثقافة، الكةيت، رقم 46، 1978، ص 5.

8- المرجع نفسه، ص10.
9- المرجع نفسه ص 16.
10- ينظر عمار الساسي: المدخل إلى الصوتيات التاريخية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، دط، سنة 2014، ص113
11- ينظر الموسيقى الكبيري، أبو نصر الفارابي، ص 15.
12- يوسف السيسي، مرجع سابق، ص 17.
13- هاشم صالح مناع: الإرشاد الشافي في العروض والقوافي نقلا عن كتاب " العروض وتهذيبه وإعادة تدوينه" ، دار الفكر العربي، دط، 1993، ص 22، 23.
14- عمار ساسي: المدخل إلى الصوتيات تاريخيا، ص133،127
15- يوسف السيسي: المرجع السابق، ص 35، 36,
16- يوسف السيسي: المرجع السابق، ص 18 وما بعدها
17- مجدي العقيلي، السماع عند العرب، منشورات رابطة خريجي الدراسات العليا، مطبعة دمشق، ط1، 1976، 33/1.
18- عبد الحميد زاهيد، علم الأصوات وعلم الموسيقى، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2010، ص20.
19- أبو نصر الفارابي: المرجع السابق، ص 11,
20- عبد الحميد زاهيد، المرجع السابق، ص71
21- عبد الحميد زاهيد، المرجع السابق، ص 12 وما بعدها.
22- الموسيقى الكبير، أبو نصر الفارابي، ص11
23- نفسه، ص12
24- أمين علي السيد: الشافي في علمي العروض والقافية، دار المعارف، دت، دط، ص 150.
25- ابن جني: سر صناعة الإعراب، 1 /7، 8.
26- نفسه، 1 / 3، 4.
27- ابن جني: المرجع السابق، 6/1.
28- نفسه، 17/1.
29- نفسه، 18/1.
30-ابن جني، المرجع السابق، 22/1.
31- ينظر: عبد الحميد زاهيد، المرجع السابق، ص23.

32 كتاب كمال أدب الغناء، الحسن بن أحمد بن علي الكاتب، تح: غطاس عبد الملك خشبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،دط، 1975.ص

33- ابن جني سر صناعة الإعراب، 20/1.

34- ينظر الموسيقى الكبير، ص1120.

35- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تقديم: خليل شرف الدين، منشورات دار مكتبة الهلال، ط1، 1986، ص5/6.

36- مجدي العقيلي، السماع عند العرب، مرجع سابق، 33/1.